الباب الخامس

رفع الكروب التى لحقت بالمسلمين

فى مواجهاتهم مع الكفار والمشركين

obeikandl.com

obeikandl.com

لقد اتسمت مواجهات الكفار للمسلمين بالعنف والضراوة، والشدة والقسوة من جانب الكفار؛ ذلك لأنهم كانوا فى أغلب الأحيان متفوقين على المسلمين فى العدد وفى العدة، كما أن الشيطان كان يشعل نار التحريض فى نفوسهم؛ لأنه يرى فى المسلمين أعداء له كما هم أعداء للكافرين، ولم يكن هناك بد فى مختلف هذه المواقف من اتخاذ العدة وإعدادها، والمحاولة الجادة لامتلاك وسائل الدفاع والتغلب على الأعداء، والتفوق فى محاولة اكتساب المهارات وإحراز الأسباب المادية للنصر، وفى ذات الوقت العمل على تقوية الجانب الروحى والمعنوى؛ واستمطار رحمات الله بالدعاء، فى كل موقف بما يناسبه، فكان مدد الله يأتيهم، وعنايته تلحظ أولياءه وجنده، ويجعل العزة والغلب والنصر فى جانب هذه القلة المؤمنة بربها، الواثقة مَن نصره، المقبلة عليه فى كل وقت وحين، فى كل حال وعلى أى حال.

وحينما نتصفح التاريخ المشرف للمؤمنين بالله وبرسوله، فإننا نجد أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أمدهم بمدده، وأفاض على أرواحهم الطاهرة من أسباب التوفيق ماجعل ألسنتهم تلهج بالدعاء لله رب العالمين، مما كان له أعظم الأثر فى تفريج هذه الكروب، ورفع أسباب الشدة والمعاناة، وهو ماسنحاول إظهاره وإبرازه فى الصفحات التالية.

١ـ دعاء النصر على الأعداء

دعاء النبى ﷺ عند عودته من الطائف:

لَـمَّا اشْتَدَّ أَذَى قريش برسول الله ﷺ عَقِبَ موت زوجِهِ خديجة وعمِّه أبى طالب، اتَّجَه إِلى الطائف عَلَّهُ يَجِد قلوبًا تستَجيب لِدَاعى الله، ولكنَّه وجَدَ غِلْظَةَ

الكُفْرِ وجَبَروُتَ الكافرين، فالكفر لافرق بين مكيِّه أوْ طائفيّه، ولاَ بَيْن شَرْقيِّه أوْ غَرْبيِّه، فالكفْر كلُّه ملةٌ واحدةٌ، فلما دعاهم إلى الله، ردُّوا عليه بخُشُونَةٍ وَعَنْفُوة وأَغْرَوْا به العبيد والسُّوقَةَ والسُّفَهَاء، فكان أن اتَّجَه إلى ربه يُنَاجيه ويلتَمِس مرضَاتَهُ فى ضَرَاعَةٍ وخُشُوع تَمثَّلاَ فى هذا القول الكريم:

«اللهم إليك أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِى وقِلَّةَ حِيلَتِى وهوَانِى على الناس يا أرحم الراحمين، أنتَ ربُّ المستَضعَفين وأنت ربى، إلى مَنْ تكلُنى؟ إلى بَعِيد يَتَجَهَّمُنِى؟ أو إلى عَدُوّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَىّ غَضبٌ فَلاَ أُبالى، ولكنْ عَافيَتُكَ هِىَ أَوْسَعُ لِى، أَعُوذُ بنُورِ وجْهكَ الذى أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْه أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخرة منْ أَنْ يَنْزِلَ بى غَضَبُكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَىَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بكَ».

وكان مالاَقَاهُ رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم أَشَدَّ على نفسه مِمَّا لاقاه فى يوم سِواه، فقد سألته السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ فيما يرويه البخارى ومسلم فقالت: أيا رسول الله هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ عليك من يوم أحُدٍ؟

قال: **«لقد لَقيتُ من قومك مالقيتُ، وكان أَشَدَّ مالقيتُ يوَم العقَبَة، إذْ عرضْتُ نفسى علَى عبد ياليل بن عبد كلال فَلَمْ يُجبْنى إلى ما أرَدْتُ، فانْطَلَقْتُ وَأنا مهْمُوم على وَجْهِى، فلَم أَسْتَفِقْ من الغمِّ إلا وأنَا بقَرْن الثَّعالب (اسم مكان)، فَرَفَعْتُ رأسى فَإذا أنا بسحابة قد أظَلَّتنى، فَنَظَرْتُ فَإذَا فيها جبريل ـ عليه السلام ـ فنادانى فقال: إن الله قد سمع قومَك وما ردُّوا عليك، وقد بعَث الله لك ملَكَ الجبال لتَأْمُرَه بما شئت، قال ﷺ: فنَادَانى مَلَكُ الجبال فَسلَّم عَلَىَّ، ثم قال: يا محمدُ إن اللهَ قد سمِعَ قولَ قومكَ وما ردُّوا عليكَ، وأنا مَلَكُ الجبال، وقد بعثَنى الله إليك لتأمُرَنى، إن شئتَ دَمْدَمْتُ عليهم الجبالَ، وإن شئْتَ خَسَفْتُ بهم الأرض، قال النبى ﷺ: لا، بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ منْ أَصْلاَبِهِم مَنْ يَعْبُده وحْدَه لاَ شَرِيكَ له».**

٢ ـ المسجد الأقصى وتفريج كرب النبى ـ صلى الله عليه وسلم

لقد لقى رسول الله ﷺ من قومه الأذى والعنت الكثير، فقد وقفوا أمامه حجر عثرة فى سبيل نشر دين الله، وقد سلكوا فى سبيل ذلك طرقًا كثيرة، سلكوا طريق الإغراء والمصانعة تارة فلم يفلحوا، وسلكوا طريق العنت تارة أخرى فباءوا بالفشل، كما سلكوا طريق الحصار والمقاطعة فيما هو معروف بمقاطعة الصحيفة، ولكنهم وجدوا فى كل ذلك رجالا بمعنى الكلمة، وجدوا رجالا كلهم تصميم على المضى قدماً فى طريق الهدى والنور، بعد أن نجاهم الله ـ تعالى ـ من الجاهلية الجهلاء، والرجعية النكراء، ومواقف الكفر فى هذا أكثر من أن تحصى، ولكننا سنتناول واحدًا منها فى هذا المقام.

ففى صبيحة الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ من بيت الله الحرام بمكة إلى بيت المقدس، ثم العروج به إلى سدرة المنتهى، وإلى ما هو أبعد منها شأوًا، إلى مستوى سمع فيه صرير أقلام القدرة، فأفاض عليه ربه ـ سبحانه وتعالى ـ من الإشراقات والتجليات ما لا يقدر عليه إلا هو.

تقول «أم هانئ بنت أبى طالب» ـ رضى الله عنها ـ: ما أُسرى برسول الله ﷺ إلا وهو فى بيتى، نام عندى تلك الليلة فى بيتى، فصلى العشاء الآخرة ثم نام ونمنا، فلما كان قبيل الفجر أهبَّها (أيقظها) رسول الله ﷺ فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أم هانئ: لقد صليت معكم العشاء الآخرةَ كما رأيت بهذا الوادى، ثم جئت بيت المقدس فصليت فيه، ثم صليت صلاة الغداة معكم الآن كما تَرَيْنَ. ثم قام ليخرج فأَخَذْتُ بطرف ردائه، فقلت: يانبى الله لاتحدث الناس فيكذبوك ويؤذوك، فقال: والله لأُحدِّثُهُمُوه، قالت: فقلت لجارية لى حبشية: اتبعى رسول الله حتى تسمعى ما يقول للناس، وما يقولون له. فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الناس أخبرهم، فعجبوا وقالوا: ما آية ذلك يا محمد فإنا لم نسمع بمثل هذا؟

فأخذ رسول الله ﷺ يخبرهم عن عير كانت لأناس من مكة، مرَّ بها رسول الله ﷺ فى مسراه، فبين لهم النبى أوصافها، وذكر بعض أماراتها، وأنها ستقدُم

وتدخل مكة ساعة كذا، وقد كان كلٌّ (أى حدث كل) ماذكره لهم النبى الكريم.

أما أبو جهل ومن على شاكلته من مثيرى الضجة والفتنة، فقد كان رد فعلهم على هذا الأمر عنيفًا، فقد أخذوا يصفقون عجبا، ويصفرون طربا؛ تكذيبا لهذا الأمر واستبعادًا، ونكاية فى رسول الله وعنادًا، فذهب بعضهم إلى أبى بكر يستعديه على رسول الله ﷺ فأخبرهم أبو بكر بأن هذا الأمر من الأمور العادية، وأنه يصدق النبى ﷺ فيما هو أبعد من ذلك، يصدقه فى خبر السماء يأتيه فى لحظة، وأخذ يفحمهم قائلا: إنكم تلقبونه بالصادق الأمين، فلم يكن ليترك الكذب على الناس ليكذب على الله. ثم ذهب معهم أبو بكر وسأل رسول الله عن هذا الخبر، فأخبره إياه، فصدقه أبو بكر أمامهم قائلا: صدقت يارسول الله، فقال له النبى ﷺ: وأنت يا أبا بكر الصديق.

وفى هذه الأثناء إذا بسائل يطرح على القوم سؤالا عقليا مؤداه: إذا كان محمد قد ذهب إلى بيت المقدس وصلى فيه فليصفه لنا!! نعم، فليصفه لنا...

ولاشك فى أن قائل هذا السؤال إن كان من المشركين فمقصده إحراج النبى ﷺ وأما إن كان القائل أبا بكر - كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات - فإن مقصوده أن يزيد القوم تصديقا بخبر رسول الله ﷺ هذا عن السؤال وعن سائله..

أما عن النبى ﷺ فقد سبب له هذا السؤال كربًا عظيمًا؛ حيث قد ورد عنه أنه قال: «**فكُرِبْتُ كربًا ما كربت مثله قط**»، أى أن الكرب الذى تعرض له النبى آنذاك كان كربا من نوع خاص؛ حيث لم يتعرض لمثل هذا الموقف من قبل، وهذا قول حق؛ لأن الإنسان الذى يطير فى زيارة هامة مثل هذه الزيارة، ليلتقى بمثل هذا الجمع الحاشد من الأنبياء والمرسلين، بل وليكون إماما لهم، لا يكون عندَه من الوقت، ولا من التفكير ما يصرفه فى تفقد هذا البيت والإعجاب به، ومعرفة تفاصيله، من نحو عدد أبوابه ونوافذه وأسطواناته وما إلى ذلك،

والذى أحرج النبى فى هذا الموقف وضاعف كربه هو علمه بأن فى القوم أناسًا يعرفون هذا المسجد بتفاصيله لكثرة زيارتهم لهذه المنطقة فى رحلتى الشتاء والصيف، يعرفونه لا على سبيل العبادة، ولكن على اعتبار أنه أثر يزار. ومن الذين يعرفون أوصافه كذلك أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه...

ولكن ياترى هل يمكن أن يترك الله نبيه فى هذا الكرب بدون تفريج؟!! كلا، ففى حديث البخارى: «**لما كذبتنى قريش قمت فى الحجر، فجلَّى الله لى بيت المقدس، فطفقت أُخْبِرهم عن آياتاته (أماراته وعلاماته) وأنا أنظر إليه**».

وهكذا فرج الله كرب نبيه ﷺ وأيده بهذه المعجزة الخارقة، إضافة إلى معجزة الإسراء والمعراج، فالذى أسرى بعبده ليلا إلى تلك البقعة قادر على أن يطوى لرسوله المسافات فيرى المسجد الأقصى عيانا بيانا وهو فى مكة فى وضح النهار، فالنبى قد أسرى الله به ليلا، والمسجد قد جىء به للنبى نهارًا، أو أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد تجلى على حبيبه ﷺ فأصبح بصره يرى الأقصى بكامل تفاصيله وهو فى مكانه بأرض الشام، إن قُلتَ هذا فصحيح، أو قلت ذاك فمليح، فأمر ربنا ـ تبارك وتعالى ـ بين الكاف والنون، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون.

٣- تفريج كرب المؤمنين فى أعقاب غزوة أحد

لقد تجلت غزوة أحد عن جراحات كثيرة للمسلمين، فهى الغزوة التى شُجَّ فيها وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته، وقتل فيها سبعون شهيداً من المسلمين، من بينهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب - رضى الله عنه - أسد الله وعم رسوله، وقد حدث لهم ما حدث كنتيجة لمخالفة الرماة أمر رسول الله وانشغالهم بجمع الغنائم، الأمر الذى جعل الكفار يكرون عليهم ويُعملون فيهم النبل والسيف، ثم إن الله مَنَّ عليهم بعد ذلك وأمدهم بمدد من عنده.

وفى مُنْصَرَف المشركين من أحد بدا لهم أن يضعفوا الروح المعنوية للمسلمين، فقد أخذوا من هذه الغزوة درساً ألقى فى روعهم أن المسلمين مازالوا ضعَافاً، وأن نصرهم على المشركين فى بدر الكبرى إنما كان ضربة حظ ولم يكن عن خبرة قتالية، ولا عن مدد من إلههم الذى يعبدونه، كان هذا النصر نوعاً من الحظ الذى حالفهم، أما قوتهم الحقيقية فقد اتضحت فى يوم أحد، وهنا وقف أبو سفيان بن حرب وصاح بأعلى صوته قائلا: موعدكم بدر من العام المقبل، حيث قتلتم أصحابنا، ووجه الكلام للنبى ﷺ فقال النبى : «عسى» وقال لأصحابه: «قولوا إن شاء الله» فقالوا مثلما أمرهم، وقد تخيل المشركون أن نهاية المسلمين وشيكة، وأنهم سيستأصلون شأفتهم قريبا وخلال عام، وأخذ المشركون يستعدون لمعركة يزعمون أنها ستكون حامية الوطيس، ومبالغة منهم فى إضعاف الروح المعنوية لدى المسلمين فإنهم لم يكفوا عن إرسال الرسل التى تشيع فى المدينة وبين جموع المؤمنين بالله أن أهل مكة يعدون العدة لملحمة قريبة الوقوع، ووشيكة الحدوث.

أما ما كان من أمر النبى ﷺ والمؤمنين بالله معه فقد ألهمهم الله دعاءً طيبا، أخذوا يرددونه، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا، فقد أثرت فيهم جراحات أحد بحق وصدق، والقرآن المجيد يبين لنا ذلك فى قول الله - تعالى -: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ**﴾[1] فلما كان العام المقبل، ندب رسول الله أصحابه للخروج للقاء المشركين فاستجابوا لله ولرسوله، فكانوا إذا لقوا أحداً من المشركين فيسألونهم عن قريش، فيقولون لهم: قد جمعوا لكم، يكيدونهم بذلك، يريدون أن يرعبوهم؛ كى يفت ذلك فى عضدهم، فيقول المؤمنون: ﴿**حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾[1] فأصبح هذا الدعاء نشيدهم، فى هذه الرحلة التى خرجوا إليها على غير عادتهم، حتى قدموا

(١) سورة آل عمران : ١٧٣ ، ١٧٤.

منطقة بدر، فوجدوا أسواقها عافية لم ينازعهم فيها أحد، وأما أهل مكة فقد سلط الله عليهم الخوف فأقعدهم بمكة ولم يتحركوا للوفاء بما قالوا فى العام السابق، وبهذا فقد نَجَّى الله المؤمنين من هذا الكرب، ومن هذه الشدة، فلما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فانقلبوا سالمين من عدوهم ومن شدة المواجهة معه، وانقلبوا كذلك بفضل عظيم، فقد مرت فى أيام الموسم وهم ببدر عيرٌ فاشتراها رسول الله ﷺ فربح فيها مالا فقسمه بين أصحابه، وتسمى هذه الموقعة السلمية «موقعة بدر الصغرى» تمييزا لها عن موقعة بدر الكبرى التى وقعت قبل أحد، وقد حدد المشركون بدرًا لتكون مكان اللقاء حتى يغسلوا عن أنفسهم عار هزيمتهم ببدر الكبرى، ولكن هيهات هيهات!! وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «**ونصرت بالرعب**».

فما أطيب هذا الدعاء الذى نجى الله به كثيراً من المكروبين!! فقد قاله إبراهيم الخليل - عليه السلام - حينما ألقى فى النار التى أعدها له النمروذ فصارت عليه برداً وسلاماً، وقالته أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - قبيل تعرضها لحادث الإفك، فأنزل الله براءتها قرآنا يتلى إلى يوم الدين، وقاله سيدنا محمد ﷺ وأصحابه فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.

٤- تفريج كرب جيش العلاء بن الحضرمى

إن العلاء بن الحضرمى هذا هو أحد الصحابة الكرام - رضى الله عنهم - والحضرميُّ والده هو: عبد الله بن عباد بن أكبر بن ربيعة بن مقنع بن حضرموت حليف بنى أمية، وكان لحضرموت هذا أخ يدعى «ميمون بن الحضرمى» وهو الذى حفر بئر ميمون، الموجودة بأعلى مكة، وقد احتفرها فى الجاهلية.

وكان العلاء من فُضَلاء الصحابة، وقد ولاه رسول الله ﷺ البحرين بعد فتحه لها، ثم ولاه أبو بكر وعمر إياها كذلك، وقيل: إن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قد ولاه البصرة فمات قبل أن يصلها، وقد استعمل عمر على البحرين أبا هريرة بعد العلاء، وقد وجهه أبو بكر أيام حروب الردة إلى البحرين، فقائل

أهلها حتى أظهره الله عليهم، وسلموا ما منعوا من الزكاة، وقد كان العلاء مستجاب الدعوة، وكان صاحب كرامات.

وقد كان لهذا الرجل من الكرامات الظاهرة، والدعوات المستجابة ما جعله مضرب المثل فى ذلك، ولقد كان له بعض المواقف مع جيش المسلمين الذى أرسله رسول الله ﷺ لفتح بلاد البحرين، وكان تعداد هذا الجيش أربعة آلاف مقاتل، ما بين راكب فرس وراكب بعير، فلما كانوا بمنطقة الصحراء شَرْقِىَّ الجزيرة العربية، تصادف أن مياه الشرب التى معهم نفدت، وأشرف الجند حينئذ على الجهد المهلك، فلما أخبروا العلاء بهذا الخبر نزل عن جواده وصلى ركعتين لله - تعالى - ثم رفع يديه إلى السماء ودعا بهذا الدعاء: «**يا عليم، ياحليم، ياعلى، ياعظيم: اسْقنا**» قال هذا بكل ثقة المؤمن وإقباله على ربه وثقته فيه، فاستجاب الله دعاءه، وما هى إلا لحظات حتى جاءت سحابة كأنها جناح طائر، فما كان من هذه السحابة إلا أن قَعْقَعَتْ (أى سمع لها صوت)، وأمطرت مطرًا طيبًا، أتاح لهذا الجمع الغفير أن يشربوا، وأن يسقوا دوابهم، وأن يتطهروا، فضلا عن الماء الذى ملأوه فى آنيتهم، فحمدوا الله على ذلك وانطلقوا تحرسهم عناية الرحمن.

ولم يكد الجند يَفْرُغون من هذا المأزق حتى صادفهم مأزق آخر أشد من سابقه، ذلك أنهم أتوا على أحد خلجان الخليج العربى التى تحول بينهم وبين ما يقصدون، ومما ضاعف من صعوبة ذلك أن هذا الخليج يبدو أنه مهجور، فليست هناك أمارات أو علامات لعبوره، ولم يجدوا كذلك أى أثر لسفن فى المنطقة يمكن أن تحملهم وأن تنقلهم إلى الجهة الأخرى، فهرعوا إلى العلاء قائدهم، فلم يتبرم بهذا الموقف، ولم يضق به ذرعاً، وإنما شرع على الفور فى مناجاة ربه، فصلى لله ركعتين، ودعاه بعدهما قائلاً: «**ياعليم، ياحليم، ياعلى، ياعظيم: أجِزْنا**» أى: يَسِّر لنا أمر المرور والجواز، بلطفك وقدرتك، يامن يجيب وحده دعوة المضطرين، ثم أخذ هذا العبد الصالح الواثق بنصر الله،

أخذ بعنان فرسه وتقدم لاجتياز الخليج، وقال لجنده: جوزوا - أى: تقدموا - وعندئذ حدثت المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان، ولم تخطر لأحد قطُّ على بال، فإذا بهؤلاء القوم بتقدمون بإبلهم وخيولهم على صفحة الماء الذى استحال تحت أرجلهم طريقا مائيا سهل العبور والاجتياز، حتى إن الصحابى الجليل أبا هريرة - رضى الله عنه، راوى هذه الواقعة - ليقسم على صدق ذلك ويقول: «فو الله ما ابْتلَّ لنا قدم ولا خف ولا حافر، وكان الجيش أربعة آلاف».

وإليك نص الواقعة كما رواها لنا أبو هريرة، حيث قال: «بُعِثَ العلاء بن الحضرمى فى جيش كنت فيهم إلى البحرين، فسلكنا مفازة، فعطشنا عطشاً شديداً حتى خفنا الهلاك، فنزل العلاء وصلى ركعتين ثم قال: «**ياعليم ياحليم يا على ياعظيم: اسقنا**» فجاءت سحابة كأنها جناح طائر فقعقعت علينا وأمطرتنا حتى ملأنا الآنية، وسقينا الركاب، ثم انطلقنا حتى أتينا على خليج من البحر، ما خيض قبل ذلك اليوم، ولا خيض بعده، فلم نجد سفنا، فصلى العلاء ركعتين ثم قال: **ياعليم ياحليم يا عليم يا عظيم: أجزنا**، ثم أخذ بعنان فرسه ثم قال: جوزوا - أى: اعبروا - قال أبو هريرة - رضى الله عنه-: فمشينا على الماء، فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولاحافر، وكان الجيش أربعة آلاف».

فإذا كان أصحاب موسى - عليه السلام - قد جعل الله لهم طريقا فى البحر يَبَسًا وهو معهم، فإن أصحاب محمد ﷺ فى جيش العلاء بن الحضرمى قد ساروا بأرجلهم وخيولهم وإبلهم على وجه الماء وما ابتل منهم قدم ولا خف ولا حافر، فرضى الله عن الصحابة والتابعين، لقاء ما أخلصوا لله دينهم وأعمالهم، فنجاهم الله من كل شدة وضيق، وفرج عنهم الكروب، فصنعوا فى دنيا الناس المعجزات، وقدموا النماذج الرائعة لما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مِنْ حسن الثقة بالله.

٥- تفريج كرب المسلمين فى غزوة الخندق

من الكروب التى غَامَتْ بها دنيا المسلمين ما ترامى إلى أسماعهم عن هذا الجبش الجرار، الذى أعده مشركو مكة، وهو جيش عرمرم، يملأ السهل والجبل، فيه تجمعت كل قوى الشر والبغى والطغيان، مُيَمِّمة شطر المدينة المنورة، فى موقعة ظَنُّوها الفاصلة، وظنوا أنهم بها سَيُصَفُّونَ حساباتهم مع هذه الدولة الوليدة، وأنهم بهذا لامحالة قادرون على وأدها فى عقر دارها، وزين لهم الشيطان أعمالهم، وقال لاغالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم، إنه جيش الأحزاب، الجيش الذى أحكم الشرك إعداده وإمداده، تلبدت دنيا المسلمين بهذه الغيوم والهواجس، ولكنها مع كل هذا لم تحل دون سطوع شمس الحقيقة المطلقة الماثلة فى أذهانهم، ولم تخف شيئا من وهج الإيمان فى النفوس، أو الثقة بالله، والاطمئنان إلى موعوده من الخير المحقق، والذى يتمثل فى النصر أو الشهادة، وربما كانت شدة كربهم متمثلة فى طول انتظارهم مَقْدِمَ عدوهم على نحو ما أورده ابن سعد فى طبقاته الكبرى عن ابن المسيب قال: حضر النبى ﷺ يوم الأحزاب وأصحابه بضع عشرة ليلة، حتى خلص إلى كل امرىء منهم الكرب، وحتى قال النبى ﷺ: «**اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعْبَد**».

وهنا وبعد أن أدرك النبى ﷺ مدى ما بلغ الكرب من أصحابه، لم يكن أمامه من سبيل إلا أن يرفع أكف الضراعة والدعاء إلى الله العلى القدير، وهكذا كان حاله فى كل نازلة، وفى كل أمر مهم شديد، ولقد جاء فى دعاء النبى ﷺ فى تلك الأثناء ما رواه جابر بن عبد الله الأنصارى - رضى الله عنه - قال: دعا رسول الله ﷺ فى مسجد الأحزاب يوم الاثنين ويوم الثلاثاء، ويوم الأربعاء، فاستجيب له يوم الأربعاء، بين صلاتى الظهر والعصر، فعرف الصحابة البشْر فى وجهه، وهنالك توجه النبى ﷺ إلى رب العالمين قائلا ما طالعتنا به كتب السيرة النبوية: «**ياصريخَ المكروبين، يامجيبَ المضطرين، اكشف هَمِّى**

وغمى وكربى، فإنك ترى ما نزل بى وبأصحابى، اللهم مُنْزِلَ الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم».

كما أن المسلمين سألوا النبى الكريم قائلين: هل من شىء نقوله فقد بلغت الروح الحلقوم؟ فقال لهم النبى ﷺ: «**نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا**» فقالوا ذلك ولَظُّوا بالدعاء إلى الله - تعالى -.

ولقد تمثل تفريج كرب النبى ﷺ وصحبه الكرام فى تلك البشارة التى جاء بها جبريل - عليه السلام - فقد بشر النبىَّ بأن الله سيرسل على المشركين ريحاً وجنوداً من عنده، ولقد استجاب الله لرسوله الكريم، فأرسل عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة، وهزمهم الله تعالى من غير قتال، فانهزموا خائفين، حتى إن عمرو بن العاص وخالد بن الوليد، قاما فى مائتى فارس فى ساقة عسكر المشركين مخافة الطلب، وكانت الريح التى هبت عليهم رِيحَ الصَّبَا، فقلعت الأوتاد وأطفأت النيران، وأكفأت القدور على أفواهها، وألقت عليهم الأخبية، وسَفَتْ عليهم التراب، وَرَمَتْهُم بالحصباء، وسمعوا فى جوانب معسكرهم التكبير، وقعقعة السلاح، فهربوا، وتركوا متاعهم، فغنمه المسلمون، ولقد نزل فى بيان ذلك قول الله - تعالى -: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا**﴾[1] وقوله: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾[2].

ويقول جابر - رضى الله عنه -: فلم ينزل بى أمر مهم غائظ إلا توخيت تلك الساعة من ذلك اليوم فدعوت الله فأعرف الإجابة. أى أن جابرا كان يتوخَّى

(١) سورة الأحزاب: ٩-١١.

(٢) سورة الأحزاب: ٢٥.

الدعاء للكرب فى يوم الأربعاء بين صلاتى الظهر والعصر، وهى الساعة التى استجيب فيها لرسول الله ﷺ على الأحزاب.

أرأيت أيها القارىء الكريم، كيف تكون حاجة تفريج الكرب إلى الإلحاح فى الدعاء؟! فهذا هو النبى الكريم ظل يدعو ربه فى ضراعة المخبتين، وإيمان الخاشعين ثلاثة أيام، حتى استجيب له؟! فإذا حزبك أمر، أو تعرضت لمكروه، فما عليك إلا أن تتلمس الأوقات الفاضلة، وتجتهد فيها بالضراعة والدعاء، وحذار من تسرب اليأس والقنوط إلى نفسك باستبطاء الدعاء، واعلم أن الله يحب عبده اللحوح، واعلم كذلك أن انتظار الفرج عبادة، فلك فى رسول أن الله الأسوة والقدوة الطيبة، فاللهم إنا نسألك بحق السائلين عليك، أن تشملنا بعنايتك ورعايتك فى كل حال وعلى أى حال، وأن تحسن عاقبتنا فى الأمور كلها ياسميع يابصير.

٦- تفريج كرب المؤمنين فى غزوة حنين

وقعت غزوة حنين فى السنة الثامنة وبعد فتح مكة؛ حيث إن هوازن ثقيف لما سمعت بفتح مكة وما فتح الله به على رسوله، فقام مالك بن عوف النصرى، فاجتمعت إليه هوازن ثقيف كلها ونصر وجشم كلها، وسعد بن بكر وناس من هلال، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة ففتح الله بهم مكة، فكان عددهم اثنى عشر ألفاً، ولقد وقع فى روع بعض جنود الإسلام أن النصر آت لامحالة اعتماداً على العدد، وهو ما بينه القرآن الكريم: ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ**﴾[1] وفى أودية تهامة واد يقال له حنين، وهو واد صعب الانحدار، سبقت هوازن وحلفاؤها إلى ذلك الوادى فكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه وتهيأوا واستعدوا، ولما وصل المسلمون وادى حنين هذا

(١) سورة التوبة : ٢٥.

انحدروا منه انحداراً، وفى عماية الصبح شدت هوازن على المسلمين شدة رجل واحد، وهنا وقع المسلمون فى كرب شديد، وضيق وحرج فكروا راجعين لايلوى أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين الناس؟ هلموا إلىَّ أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، وقال النبى للعباس: ياعباس اصرخ: يامعشر الأنصار، يامعشر أصحاب السَّمُرَة، فأجابوا لبيك لبيك، حتى اجتمع حول النبى منهم مائة، وقد وقع القوم فى كرب عظيم، وهم وغم شديد.

ولقد كان النبى ﷺ يركب بغلته «دلدل» وتسمى «البيضاء» أيضا، وهى التى أهداها له فروة بن نعامة، وقد أورد السهيلى والطبرانى فى الأوسط من حديث أنس، وفيه من حديث شيبة بن عثمان أن النبى ﷺ قال يوم حنين لعمه العباس: «**ناولنى من البطحاء**» أى: ناولنى حفنة من تراب الأرض، فأفْقَهَ الله البغلة كلامه، أى: فهمت كلام النبى فانخفضت به حتى كاد بطنها يمسُّ الأرض، فتناول رسول الله ﷺ من الحصباء، فنفخ فى وجوههم وقال: «**شاهت الوجوه، حم. لايُنْصرون**» وهنا يقول جبير بن مُطْعم فيما رواه عنه ابن إسحاق: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادى، لم أشكّ أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم، ويقول أنس - رضى الله عنه-: «فانهزم القوم وما رميناهم بسهم، ولاطعناهم برمح، ولاضربناهم بسيف».

وبهذا فقد فرَّج الله كرب جيش المسلمين، ببركة النبى الكريم، وما يتحلى به من رباطة الجأش، والثبات على الأمر، وبفضل دعائه الوجيز الموجز الذى تفتحت له أبواب السماء، ونزلت جنود الله تملأ الوادى، وما يعلم جنود ربك إلا هو، ليصدق على الناس موعود الله إذ يقول: ﴿. . .**ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ**

جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾[1] أرأيت - أيها القارئ الكريم - كيف تكون عاقبة الاغترار بالقوة؟؟ إنها تفُت فى العضد، وتفرق الصفوف، وتوهن العزائم، أما التواضع والخضوع لله فإنه يعود بأطيب الثمرات، ويوحد الصفوف، فتلتقى القلوب على الهدف السامى النبيل، ويستمطر العباد بها شآبيب رحمة الله، فلا يلبث فرج الله القريب أن يدرك المضطرين، وقد لقنتهم التجربة درساً لاينسى.

فاجعلنا اللهم من عبادك المتواضعين، وافتح لنا بالتواضع أبواب الوصول، ومُنَّ علينا مع الوصول بالقبـول، يامن يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

٧- تفريج كرب حذيفة بن اليمان فى غزوة الأحزاب

إن الصحابىَّ الجليل سيدنا حذيفة بن اليمان له منزلة خاصة عند رسول الله ﷺ فكان كاتم سرِّه، حتى إن الرسول قبل لحاقه بالرفيق الأعلى قد ترك عنده بيانا بأسماء المنافقين الذين يسكنون المدينة، وإنما حَمَّله الرسول هذه الأمانة؛ لأنه كان دائما يسأل النبى عن الشر مخافة أن يدركه، وهذا بخلاف ما تعارف الناس عليه من السؤال عن الخير حتى يستكثروا من فعله، وهذه النزعة لدى «حذيفة» تذكرنا بقول الشاعر:

عرَفت الشرَّ لا للشـر لكـن لتوقيـه ومـن لايعـرف الشـرَّ يقـع فيـه

وأما عن الشدة والكرب الذى وقع فيه حذيفة يوم الأحزاب فهو ما أخرجه البيهقى من عدة طرق، حيث يقول حذيفة عن هذا المشهد: لقد رأيتُنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب فى ليلة ذات ريح شديدة وقَرٍّ، فقال رسول الله ﷺ: **«ألا رجلٌ يأتينى بخبر القوم يكون معى يوم القيامة؟»**

فلم يجبه منا أحد، ثم الثانية، ثم الثالثة، ثم قال: ياحذيفة قم فأتنا بخبر القوم، وهنا يحدثنا حذيفة عن الشدة التى وقع فيها حينئذ، فقد قال له النبى

(١) سورة التوبة : ٢٦.

ﷺ: أما سمعت صوتى؟ قال: بلى، قال: فما يمنعك أن تجيبنى؟ قال: البرد، ولكنه مع هذه الشدة والخوف والبرد كان لايستطيع أن يعصى لرسول الله أمراً، فقد قال فى رواية أخرى: يارسول الله ما قمت إليك إلا حياء منك من البرد، وهنا أدرك النبى ما قد انتاب حذيفة من كرب وشدة، فما كان منه إلا أن دعا له فقال: «**اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه، ومن تحته**» وقال له أيضاً: «**لابأس عليك من حر ولابرد حتى ترجع**» قال: فوالله ما خلق الله فزعاً ولا قرًّا (أى برداً) فى جوفى إلا خرج من جوفى، فما أجد منه شيئاً، فدخلت العسكر، فإذا الناس فى عسكرهم يقولون: الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح فى عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً، فوالله إنى لأسمع صوت الحجارة فى رحالهم وفرشهم، والريح تضربهم بها، ثم رجعت، فلما انتصف بى الطريق إذا أنا بنحو عشرين فارساً مُعْتَمِّينَ، (أى عليهم العمائم على رءوسهم) فقالوا: أخبر صاحبك أن الله كفاه القوم.

والطريف فى هذا الموقف أن فرج حذيفة كان بقدر أداء مهمته، حيث يقول: فمضيت كأنما أمشى فى حمام، ورجعت كأنما أمشى فى حمام، ثم أصابنى البرد حين فرغت، ويقول أيضا: فوالله ماعدا أن رجعت حتى راجعنى القرُّ، وجعلت أقرقف (أى من شدة البرد) وأنزل الله قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾[1].

وهذا الدعاء الذى دعا به رسول الله ﷺ لسيدنا حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - نافع لكل مكروب يريد خدمة دينه ابتغاء مرضاة الله، وحبًّا فى رسول الله ﷺ ويمكن للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء لنفسه قائلاً: «**اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى، وعن يمينى وعن شمالى، ومن فوقى ومن تحتى**».

---

(١) سورة الأحزاب : ٩.

ولما أصاب حذيفةَ البردُ بعد أن رجع ألبسه رسول الله فضل عباءة كانت عنده يصلى فيها، فلم يزل نائما حتى الصباح، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ: **«قم يا نومان»**.

٨- تفريج كرب سعد بن أبى وقاص فى معركة القادسية

إن الصحابىَّ الجليلَ سعدَ بن أبى وقاص واحدٌ من الصحابة الأجلاء، الذين دخلوا الإسلام مبكرين، فيقول عن نفسه: «لقد أتى علىَّ يومٌ وإنى لثُلثُ الإسلام» وهو أول من رمى بسهم فى سبيل الله، وهو الوحيد الذى افتداه الرسول بأبويه؛ حيث قال له فى معركة أحد: **«ارم سعد، فداك أبى وأمى»** وهو الذى كان النبى ﷺ يباهى به ويقول: **«هذا خالى، فليُرنى امْرُؤٌ خاله»**؛ وذلك لأن جدَّ سعد - واسمه أهيب بنُ مناف - كان عمَّ السيدة آمنة، والدة الرسول ﷺ.

وكان سعد بن أبى وقاص من أشجع فرسان العرب والمسلمين، وكان له سلاحان ماضيان: هما رُمْحُه، ودعاؤه، فإذا رمى فى الحرب عدواً أصابه، وإذا دعا الله دعاءً أجابه، وذلك ببركة دعاء النبى ﷺ له، فحينما رأى الرسول ﷺ منه ذات يوم مَا سَرَّه وأقرَّ عينه، ما كان منه إلا أن دعا له قائلا: **«اللهم سَدِّدْ رميته، وأجب دعوته»**.

وكان سعد - رضى الله عنه - كثير البكاء من خشية الله، وكان موفقاً مقبولا، فكما كان مستجاب الدعوة إذا دعا الله النصر أعطاه إياه، كان عفَّ الطُّعمة، عفَّ اللسان، عفَّ الضمير، وهو المبشَّر بالجنة، وهو فارس بدر وأحد، ولقد شهد المشاهد كلَّها مع رسول الله ﷺ.

ومن الكروب التى عاشها ابن أبى وقاص كربٌ عاناه خوفاً على الإسلام والمسلمين، إيمانا منه بجسامة المسئولية وخطرها، فبعد موقعة القادسية التى انتصر فيها الإسلام نصراً عزيزاً مؤزَّراً بقيادة سعد بن أبى وقاص، ما كان من الفرس إلا أن تجمعت فلولُ جيشهم وبقاياه استعداداً لخوض معركة فاصلة فى

«المدائن» وقد كان الفاصل الزمنى بين القادسية وبين معركة المدائن مايقرب من عامين، فما كان من سعد إلا أن قَيَّمَ الموقف، وأعاد حساباته فى ضوء إيمانه بالله، وخوفه على الإسلام والمسلمين، وحرصه على مواصلة الزحف وتقدم الراية دوماً إلى الأمام، وكان من شيمة سعد أن إيمانه وتصميمه ليتألقان فى وجه الخطر، ويتَسوَّران المستحيل فى استبسال عظيم، رأى سعد أن الوقت ليس فى صالحه، ولكن ماذا يفعل؟! إن بينه وبين العدو مانعاً مائيا يشكل له خطراً، إنه نهر دجلة، فاتخذ قراره بالعبور، وكان عليه أن يؤمِّنَ مكان الوصول فى الضفة الأخرى التى يرابط فيها العدو، إن المهمة صعبة، وكربُه يزداد لحظة بعد لحظة، وسرعان ما لمعت فى ذهنه المتوقد فكرةٌ جبارة، فنادى قائدين من قواده الكبار، هما «عاصم بن عمرو» و «القعقاع بن عمرو» فأمَّر عاصما على كتيبة أطلق عليها «كتيبة الأهوال»، وأمَّر القعقاع على كتيبة أخرى أطلق عليها «الكتيبة الخرساء» ودفع بهما إلى المقدمة، حتى إن هاتين الكتيبتين خاضتا الأهوال واستطاعتا بفضل الله الوصول إلى الهدف وتأمين منطقة وصول الجيش الباسل العابر بإذن الله.

وقد تمثل تفريج كرب سعد وأصحابه، بل تفريج كرب الأمة الإسلامية جمعاء فى هذا المشهد الرائع، وفى تلك اللحظة الفريدة، التى توقف الزمان عندها شاخصا، إنها لحظة العبور المجيد، فألهم الله هذا القائد دعاءً قرآنيا عظيما لم يلبث أن أمَرَ سائر الجيش بترديده، فتعالت صيحة الحق ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ثم اقتحم بفرسه دجلة، واقتحم الناس وراءه، لم يتخلف عنه أحد، فساروا فى دجلة كأنما يسيرون على وجه الأرض حتى ملأوا ما بين الجانبين، وجعل الناس يتحدثون وهم يسيرون على وجه الماء كأنهم يسيرون على وجه الأرض، طمأنينة بالله، وثقة فى موعوده بتأييده ونصره... منظر يجل عن الوصف، أذهل سلمان الفارسى رفيق سعد فى المعركة؛ حيث لم يكد يرى الجيش العابر الصابر على هذا النحو حتى أخذ يضرب كفا على كف من شدة الدهشة والغبطة ويقول: «إن الإسلام جديد، ذُلِّلَتْ والله لهم البحار، كما ذُلِّلَ

لهم البر، والذى نفس سلمان بيده لَيَخْرُجُنَّ منه أفواجاً، كما دخلوه أفواجاً» أى ليخرجن من النهر سالمين أفواجاً كما نزلوا لُجَّتَهُ أفواجاً، ولقد كان، حيث خرج الجند من النهر بكامل عددهم وعتادهم، لم تضع منهم شكيمة فرس، حتى إن أحد المقاتلين سقط منه قدحه، فعز عليه أن يكون الوحيد بين رفاقه الذى يضيع منه شىء، فنادى أصحابه لكى يعاونوه على انتشاله حتى تم له التقاطه من لجة الماء، وهكذا فرج الله كرب سعد وجيشه ببركة هذا الدعاء العظيم، الذى أخلصت فيه النوايا لله، وقال القوم فى صدق: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

٩- تفريج كرب أبى مسلم الخولانى عند غزو الروم

إن أبا مُسلم الخولانىّ، واسمه «عبد الله بن ثَوْب» هو واحد من خيار التابعين وصالحيهم، بل إنه ليعتبر من أشهر عُبَّاد أهل زمانه وزهادهم، وقد أجرى الله - تعالى - على يديه كثيراً من الخوارق والكرامات، ومنها ما رواه ابن عساكر من طريق إسماعيل بن عياش، عن شُرَحبيل بن مسلم الخولانى: أن الأسود بن قيس تَنَبَّأَ باليمن (أى ادعى النبوة)، فبعث إلى أبى مسلم الخولانى، فأتاه، فقال: أتشهد أنى رسول الله؟ قال: ما أسمع، قال: تشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، فأتى بنار عظيمة، ثم ألقى أبا مسلم فيها، فلم تَضُرَّه، فقيل للأسود: إن لم تَنْفِ هذا عنك أفسد عليك من اتبعك، فأمره بالرحيل، فقدم المدينة، وقد قُبض النبى ﷺ واستخلف أبو بكر، فقال أبو بكر: «الحمد لله الذى أَلْبَثَنى (أى أبقانى) حتى أرانى فى أمة محمد ﷺ من صُنع به كما صُنع بإبراهيم خليل الرحمن».

ومن المواقف الشهيرة لأبى مسلم الخولانى ما أوردته كتب السنة من أن جيش المسلمين فى عهد عمر - رضى الله عنه - قد تعرض لمحنة قاسية وكرب شديد، عندما كانوا متوجهين لغزو الروم، حيث قد اعترضهم نهر دجلة، وهو مانع مائى، تعمل له الجيوش المتقدمة ألف حساب وحساب، سواء أكان ذلك فى الحروب القديمة أم فى الحروب الحديثة، ولقد تصادف مرورهم بدجلة فى

وقت كان فيضانها مرتفعاً، إلى حد أنها كانت ترمى الخشب من مَدِّها، أى من شدة جريان مائها، فاشتد لذلك كربهم، ففكروا فى الأمر وقدَّروا، وكان بينهم هذا التابعىُّ الصالح، أبو مسلم الخولانى، وهو معروف بحسن صلته بالله، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

وقد تمثل تفريج كرب هذا الجيش فيما قام به أبو مسلم الخولانى، فقد روى البيهقىُّ، وابنُ عساكر، وأبو داود، وأحمد: أن أبا مسلم مرَّ بين أيدى الجيش، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**اللهم أجَزْت بنى إسرائيل البحرَ، وإنَّا عبيدك، وفى سبيلك، فأجِزْنا هذا النهرَ اليوم**» ثم قال للجند: اعْبُروا باسم الله، ومَرَّ من بين أيديهم.

وهنا استجاب الله هذا الدعاء، فتقدم الجيش بكامله فعبروا النهرَ فما بَلَغَ الماء بطون الخيل حتى عبر الناس كلهم، ثم وقف أبو مسلم وقال: يامعشر المسلمين: هل ذهب لأحد منكم شىء؟ فأدْعُوَ الله - تعالى - برده؟ وفى رواية أخرى: «والتفت إلى أصحابه وقال: هل تفقدون من متاعكم شيئا فندعو الله؟» حتى إن بعض الجند لما سمع أبا مسلم يقول هذا قد ألقى مِخْلاتَهُ عمداً ثم قال: مخلاتى وقعت فى هذا النهر، فقال له أبو مسلم: اتبعنى، فإذا المخلاة قد وقعت وتعلقت ببعض أعواد النهر، فقال أبو مسلم لصاحب المخلاة: خذ مخلاتك، فأخذها.

وبهذا فقد فرَّج الله كرب هذا الجيش المتوكل على الله لنصرة دينه، وإخلاص عباد الله الصالحين، وحسن توجههم إلى الله - تعالى - وصدق الرجاء.

أرأيت أيها القارىء الكريم، كيف يأتى تفريج كرب المكروبين، وتذليل الصعاب أمام المؤمنين؟! فهكذا يكون المؤمن دائماً معتمداً على الله، متوكلا عليه، آخذا بالأسباب، وصدق الرسول الكريم، حينما يوجه الأمة - كلَّ الأمة - إلى الأخذ بهذه الأسباب العظيمة فيقول: «**لاتعجزوا فى الدعاء؛ فإنه لن يهلك**

مع الدعاء أحدٌ» فعلى العبد ألاَّ يعجز بحال من الأحوال عن دعاء ربه، وطلب الخير والمعونة منه، فالدعاء سلاح المؤمن، وعماد الدين، ونور السموات والأرض، اللهم هذه تحركات جوارحنا، مما لايغيب عنك شيء منها، فكن لها ساترا، اللهم أنت المطلع على خفقات القلوب، وأحاديث النفوس، نسألك أن تستر فلا تفضح، وأن ترحم فلا تعذب.

١٠- تفريج كروب المسلمين يوم فتح خيبر

إن خيبر مدينة كبيرة ذاتُ حصون كثيرة، ومزارع جيدة، وهى تقع على بعد مائة ميل شمالى المدينة جهة الشام، وكان اليهود يستوطنون هذه المنطقة، ولقد كان السبب الوحيد لغزو خيبر من قبل النبى والمسلمين هو عنادهم عن قبول الحق، وأحقادهم المعتملة فى صدورهم ضد الإسلام، بالرغم من دعوتهم للإسلام بالطرق السلمية هذه المدة الطويلة، التى بلغت سبع سنين من الهجرة، وقد سار إليها النبى فى جيش قوامه ألف وأربعمائة مقاتل، ما بين فارس (أى راكب فرساً) وراجل (أى يقاتل على قدميه) ولقد كان من عادة النبى ﷺ أنه إذا أغار على قوم لم يغر عليهم حتى يصبح، فإذا سمع أذانا أمسك عن قتالهم، وإذا لم يسمع أذانا أغار عليهم، وقد بات رسول الله ﷺ على مشارف خيبر، فلم يسمع بها أذانا، كما أن العمال الزراعيين قد خرجوا قبيل طلوع الشمس إلى مزارعهم، فلما رأوا جيش المسلمين صاحوا: محمد وجيشه، ثم ولوا هاربين، فأحكم أهل خيبر إغلاق حصونهم المحكمة التى أعدوها تحسبا لمواقف الإغارة عليهم، فقال النبى ﷺ قولته الشهيرة: «**الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**».

وقد تمثل كرب المسلمين آنذاك فيما يعلمونه من منعة تلك الحصون، وأن اليهود قد اتخذوا لأنفسهم فيها من الاحتياطيات الغذائية والمؤن ما يكفى لصمودهم فترات لايستهان بها، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**لا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ**﴾[1].

(١) سورة الحشر : ١٤.

ولما استشعر رسول الله ﷺ والمؤمنون بالله معه هذا الموقف وتلك الشدة ما كان منه ﷺ إلا أن استوقف القوم على مشارف خيبر ودعا بهذا الدعاء الذى يرويه عطاء بن أبى مروان الأسلمى عن أبيه عن أبى معتب بن عمرو أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم: «**قفوا**» ثم قال: «**اللهم ربَّ السموات وما أظلَلْن، وربَّ الأرضين وما أقللن، وربَّ الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذْرَيْن، فإنا نسألك خَيْرَ هذه القرية وخيرَ أهلها، وخيرَ ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها، وشرِّ ما فيها، أقْدِموا بسم الله. وكان يقولها - عليه السلام - لكل قرية دخلها**». بهذه الضراعة، وبتلك المناجاة يتوجه النبى الكريم إلى الله العلى القدير، كى يفتح مغاليق هذه الحصون أمام جند الرحمن، وأن يجعلها غنيمة لهم.

ولقد استجاب الله لضراعة نبيه ﷺ وقد تمثل ذلك - من بين ما تمثل - فيما حكاه ابن إسحاق، وهو أن غَطَفان لما سمعوا بمنزل رسول الله من خيبر جمعوا له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا سارو ا مَنْقَلَةً، سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسًّا (أى سمعوا جلبة أصوات) ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أموالهم وأهليهم، وخَلَّوْا بين رسول الله وبين خيبر.

كما بدأت حصون خيبر وقلاعها تتهاوى حصنا حصنا، فتم فتح حصن «ناعم» وتلاه حصنُ «بنى أبى الحقيق» وهو الذى كانت تقيم فيه «صفية بنت حُيى بن أخطب» وهى التى تزوجها النبى ﷺ وكان شعار أصحاب النبى ﷺ فى قتالهم يوم خيبر: **يامنصور، أمِتْ، أمِتْ**.

وتوالى فتح هذه الحصون التى طالما تطاول أهلها على الإسلام وعلى نبى الإسلام، وطالما دبروا الوقائع والمكائد حتى أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وجعلهم غنيمة للمؤمنين، بفضل وببركة دعوات النبى الكريم ﷺ.

١١- تفريج واحد من كروب المسلمين فى خيبر

لقد تعرض المسلمون أثناء فتح خيبر إلى بعض الشدائد التى جعلتهم يلتمسون تفريجها بدعوات طيبة من رسول الله ﷺ وقد كانت تلك الدعوات هى الوسيلة الفعالة فى فتح مغاليق تلك الحصون، فبعد أن تم فتح حصنى «ناعم» و «ابن أبى الحقيق»، وهما من الحصون الصغيرة المتواضعة، فقد أبدت الحصون الكبيرة مقاومة ملحوظة، وبخاصة حصن «الصعب بن معاذ» وهو من أشهر وأكبر وأمنع حصون خيبر آنذاك، كما أنه كان الحصن الرئيسى المملوء بالذخائر والمؤن، فهو فى تقديرهم وفى تقدير المراقبين المستودع الرئيسى لتلك الحصون، فهو عامر - بل زاخر - بالطعام والوَدْك، وغيرها مما يحتاجه الناس فى معايشهم، وكان المسلمون قد أصابهم الجهد، وليس معهم ما يتقوون به على قتال أعداء الله، فما كان من المسلمين إلا أن تقدم بعضهم إلى رسول الله ﷺ - وهم بنو سهم من قبيلة أسلم - فشكوا إليه حالهم، وما نالهم من فاقة وجهد؛ حيث قالوا: يارسول الله: لقد جُهدنا، وما بأيدينا من شىء، فلم يجدوا عند رسول الله شيئا يعطيهم إياه، فماذا يصنع لهم، وماذا يصنعون؟!! ومعلوم - كما يقال فى شعارات الحروب-: إن الجيوش تمشى على بطونها، أى: إن الإمداد والتموين هو الشريان الحيوى الدافق الذى يجعلها تصمد، وتتقدم وتحرز انتصاراتها بفضل اعتمادها على الله، وثقتها فى موعوده، فنظر النبى ﷺ إليهم نظرة إشفاق، وأراد أن يعلمهم وجهتهم الصحيحة يوم تشتد الأمور، وتتأزم الأحوال، أنه لا وجهة لهم إلا الله رب العالمين، الذى بيده وحده مفاتيح الفرج، وإجابة المضطر، ونصر المظلوم، ما كان منه ﷺ إلا أن نفحهم هذه الضراعة النبوية الكريمة، والمنحة المحمدية الغالية، فرفع يديه إلى السماء ضارعا إلى الله، لائذا ببابه، قاصداً جنابه، متبتلا فى محرابه بكلمات ملؤها الصدق والإخلاص، وعتها عقول الأصحاب قبل أن تسمعها آذانهم، وإليك أيها القارئ الكريم هذه الضراعة وتلك المناجاة:

«اللهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعاماً وودْكا (سَمْنا)» كلمات غير متكلَّفة، فهى ضراعة إلى الله بلسان المقال، المعبر عن لسان الحال، وذلك أبلغ ما يدعو به الداعون، ويتقرب إلى الله به المتقربون، فهو الذى يعلم السر وأخفى.

وقد تمثل تفريج هذا الكرب، وكشف هذا الهم والغم، أن بات الناس ليلتهم مقيمين على طاعة ربهم، مجتهدين فى عبادتهم، وفى الصباح رأوا عجبا، فقد فتح الله - عز وجل - عليهم أعظم حصون خيبر وأغناها وأمنعها، ببركة هذه الدعوات الكريمات، فتح الله عليهم حصن الصعب بن معاذ، وهو الحصن الذى يشار إليه بالبنان، فتحه الله على المسلمين بدون أدنى مقاومة أو جهد، وكأن الله قد ألقى فى قلوب أهل هذا الحصن الرعب، مصداقا لقول النبى الكريم: **«ونُصِرْتُ بالرعب»** فكان فى فتح هذا الحصن وسقوطه فى أيدى المسلمين تفريجَ كربهم، وتخفيف معاناتهم.

وهكذا استمر المسلمون فى تقدمهم، ومواصلة كفاحهم ضد صلف المادة وغرورها وجبروتها، ضد اللجاجة والعناد، حتى انتهوا إلى آخر معقلين من هذه المعاقل، وهما حصنا «الوطيح، والسُّلالم» فحاصرهما النبى ﷺ بضع عشرة ليلة، حتى مَنَّ الله بفتح هذه الحصون جميعاً، لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والله عزيز حكيم.

فانظر - يا رعاك الله - بعين الاعتبار؛ لكى ترى رسول الله ﷺ وهو يستخدم أمضى أسلحة الإيمان إذا تأزمت الأمور، واشتد المضيق، انه سلاح الضراعة والدعاء، الذى يجب على المسلمين أن يستثمروه فى وجه طغيان المادة وصلف التقنية، فى كل حال وعلى أى حال، فالله قد أمرنا بالدعاء، ووعدنا بالإجابة: **﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾**[1] فاستجب لنا ياربنا كما وعدتنا، وما ذلك عليك بعزيز.

---

(١) سورة غافر: ٦٠.

١٢- تفريج كرب الإمام على يوم الخندق عند مواجهة عمرو بن وُدّ

إن الإمام علىً بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم وجهه - هو ابن عم رسول الله ﷺ وهو ربيب بيت النبوة، فقد تربى فى كنف الرسول الأمين، وكان أول الفتيان دخولا فى الإسلام، ومن أجل هذا وغيره، فقد كان حبيبا إلى قلب النبى ﷺ حتى إنه ليقول له: «**أنت منى بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبى بعدى**».

وقد أثر عن الإمام علىٍّ الشجاعة الفائقة حتى فى صباه الباكر، وقد كان النبى الكريم.. يعده لغد مقبل تنتظره الدعوة الإسلامية.

ولما كانت غزوة الأحزاب الشهيرة، والتى تجمعت فيها قوى البغى والشر، مستهدفين استئصال شأفة الإسلام وأهله، فلم يكن أمام النبى ﷺ وقد أصبح الخطر يتهدد المدينة المنورة، عاصمة الدولة الإسلامية الناهضة والنابضة بإذن الله - تعالى - لم يكن أمامه من سبيل للدفاع عن المدينة إلا اتباع الخطة التى تسفر عنها مشورة القوم فى هذا الشأن.

وقد تمثلت هذه الخطة فى إقامة خندق حول المدينة كنوع من فنون الحرب الفارسية، وقد أشار بهذا الرأى الصحابى الجليل «سلمان الفارسى».

وقد أصبح النبى ﷺ والمؤمنون بالله معه داخل الخندق، والمشركون خارجه، وقد اقتحم جماعة من المشركين الخندق من ناحية ضيقة فيه، وهم يركبون خيولهم، أوكان من بين هؤلاء المغيرين فارس مشهود له بالكفاءة القتالية؛ حيث كان يجيد فن المبارزة بالسيف، وقد بلغ من شدته أنه كان إذا وقف على النطع، وحاول القوم زحزحته عنه لم يستطيعوا لذلك سبيلا، حتى إن النطع ليمزق قطعا صغيرة إلا موضع قدميه، وما يستطيعون زحزحته عنه، والنطع هو جلد البعير، ذلكم الفارس هو «عمرو بن عَبْد وُدّ» فأخذ هذا المشرك يوبخ المسلمين، ويتهكم بهم قائلا: أين جنتكم التى تزعمون أن من قتل منكم فسيدخلها؟ أفلا تبرزون لى رجلا؟!

وهنا ثارت دماء النخوة فى صدر على، وازدادت ثورتها حينما لم يجب أحد من معسكر المسلمين ذلك العمرو، فقال لرسول الله ﷺ : أنا له يارسول الله، فقال له النبى: اجلس إنه عمرو، فقال: وإن كان عَمْرًا: فأذن له الرسول وأعطاه سيفة ذا الفقار، وألبسه درعه الحديد، وعمَّمَهُ بعمامته وقال: «**اللهم أعنه عليه، اللهم هذا أخى وابن عمى فلا تذرنى فرداً وأنت خير الوارثين**».

فتقدم إليه عَلِىٌّ فى ثقة الواثق بالله، وأعانه الله عليه فقتله، وعاد ظافراً منتصراً، ففت مقتل عمرو فى نفوس أصحابه، ولما عاد علىٌّ إلى رسول الله ﷺ قال له: كيف وجدت نفسك معه يا على؟ قال: وجدت أن لو كان أهل المدينة فى جانب وأنا فى جانب لقدرت عليهم.

وبهذا يتضح لنا أن الكرب الذى لحق بعلى من جراء هذا التهديد قد فرجه الله عنه، ومنحه القوة والثبات ببركة دعوات النبى الكريمة له بالعون والنصر، وأن المسلم حينما يعقد العزم على فعل الخير ونصرة دين الله فى أى موقع، فإن عون الله يكون حليفه، ويأتيه الغوث والمدد من حيث لايدرى ولايحتسب.

فكن اللهم لنا ولا تكن علينا، وفرج عنا كل شدة وكرب يا أرحم الراحمين.

* * *